ما رأيت وما سمعت

في سورية ولبنان

للاستاذ حبيب الزحلاوى

— ٣ —

أجملت فى مقالى السابق بعض المسائل الهامة التى تدور فى سوريا اليوم ، وقد كان من الضرورى شرحها وتبسيطها ليقف القارىء على حقيقتها ، أما الآن وقد زالت الأسباب التى الجأتنى إلى الاجمال دون التفصيل ، وذلك بنقل شركات الأنباء أخبار الاعتداء على العقيد أديب الشيشكلى ، زعيم الانقلاب الثالث والمؤامرة التى دبرت لرئيس الوزارة والمجلس ، فقد صار من الواجب على أن انبسط فى الشرح ، لاعتقادى بأن الأحداث المقبلة قد لا تقف عند حد إطلاق الرصاص على ضابط كبير ، بل هى أعظم وأخطر من التآمر على حياة وزير أو رئيس .

ليست سياسة الحكم ، ولا حب الاستئثار بمقاعد الحكم ، ولا اختصام الأحزاب على موارد الكسب عن طريق الحكم ، هى سبب الاضطراب والقلق والخوف الذى يحسه كل سورى ، ولا هى العثرة فى طريق الاستقرار المنشود ، إنما مرد ذلك إلى نقرة قائمة بين جيلين يرى الواحد منهما لا يمكن أن يراه الآخر تعصباً وعناداً ، وينكر عليه كل عمل يعمله ادعاء وعنجهية لا لأن أعمال هذا أو ذاك فاسدة أو صحيحة ، بل لأن الجيل الجديد يعمل بروح لا تقوم للملك قائمة بدونه ، وأن هذا الروح لا أثر له البتة فى نفوس وعقول أبناء الجيل القديم . ومن العجب العجاب أن ضباط الجيش قد حشروا ذواتهم حشراً فى هذه الخصومة الطبيعية . لا باعتبار أنهم بعيدون عن المؤثرات النفسية ودوافعها ، بل لأنهم فى مستوى عقلى يجعلهم غرباء عن أبناء الجيل المتقلب بين الميوعة والتحجر ، وعن ابن الجيل الجديد المتوثب للعمل المجدى

صحيح أن السورى من أبناء الجيل السابق قام بأعمال باهرة مجيدة فى ميدان الكفاح والدفاع أبانته ، بعد لأى وجهاد ، الغرض الذى صبا إلى تحقيقه وهو « الاستقلال » ولكن ما قيمة هذا الاستقلال — فى نظر ابن الجيل الجديد — ما قدره والأهواء السياسية تتقاذفه وتتلاعب به وأن المتلاعب المساوم هو الرجل الذى دافع وكافح لنواله ؟ ؟ !!

يحسن أن نرفع اللثام قليلا لنبين طرفا من وجه المسألة الشكلة التى أحدثت النقرة بين الجيلين ، أى النفرة المستحكمة بين الوالد والولد ، فان فعلنا نجد أن مسألة « سورية الكبرى » هى المشكلة الكبرى والسبب الأوحد فى كل ما وقع ويقع وسيقع وسوف يقع بين أبناء سورية من جهة واحدة ، وبينهم وبين أبناء العراق وشرق الأردن ولبنان ، نعم ولبنان أيضاً من جهة ثانية ، وأن العلة أو المشكلة ستبقى قائمة ما دامت سياسة الاستعمار البريطانى لم تبلغ كل أغراضها بعد ، وما دامت الأيدى « العربية » المأجورة لأجل تحقيق هذا الغرض عاجزة عن تحقيقه .

ماهو هذا الغرض الذى ترمى اليه سياسة الاستعمار البريطانى؟

ليس الرد على هذا السؤال بالعسير حتى على رجل الشارع فى دمشق وبغداد وعمان وبيروت ، لأن سياسة الاستعمار البريطانية التى جعلت من الوطن القومى اليهودى « دولة اسرائيل » غير المعترف بها من الدول بعد ، وجعلت من لبنان « جمهورية مسيحية » ضمن سلامتها وتعهد بقاءها فى وضعها الحالى ، كل من انجلترا وأمريكا وفرنسا ، تريد أن تجعل من « سورية الكبرى » مملكة إسلامية هاشمية .

من يراجع خطب المطران مبارك ، بل من يراجع الكتاب الأزرق الذى رفعه السيد نورى السعيد إلى وزير الدولة البريطانى مستر كابى ، والذى تطوعت جمعية « الاتحاد العربى » فى مصر بطبعه وتوزيعه على نفقتها ، هذه الجمعية التى تدعو إلى « إتحاد عربى إسلامى » يرأسها المرحوم توفيق دوس باشا القبطى ، ويدير أعمالها بحنكة ونشاط « الشيخ المحترم خليل ثابت بك رئيس تحرير القطم الأسبق يعاونه الخواجه أرفتى أيضاً ، أقول من يراجع كتاب السيد نورى السعيد يجد أسباباً اقتصادية واجتماعية وسياسية وجيهة دعته إلى رفع تقريره إلى وزير الدولة البريطانى بشأن « سورية الكبرى » وبه يقول « ... ويحتاج العراق إلى منفذ إلى البحر الأبيض المتوسط لنفطه ومنتجاته ، وتحتاج فلسطين التى تتحول بسرعة إلى قطر صناعى إلى أسواقنا

لمنتجاتها ، وتحتاج إلى نفط ووقود لعاملها .. ويكتفي دولته بهذه الأسباب الاقتصادية لخلاف سوريا الكبرى لمد فلسطين أي دولة إسرائيل التي تحولت إلى قطر صناعي تحتاج معامله إلى نفط العراق ويسكت عن السبب الآخر الذي يجعل من سوريا الكبرى مملكة عربية هاشمية تقف سداً في وجه المملكة السعودية العربية التي يتحكم الأمريكان في نفطها وينعم أهلها بالدولار والذهب. ناهيك بوضع شرق الأردن السياسي ومعاهدته المعهودة مع الانجليز ، وبالفرق بين وضع سوريا المستقلة السياسي .

لقضية سوريا الكبرى جوانب أخرى خلاف الجانبين السياسي والاقتصادي ، ولعل الجانب الخافق فيها هو أكثر الجوانب حساسية لاتصاله المباشر بالدين الحنيف ، ولالتصاقه بمجد العرب الذي يتشوق كل مسلم إلى استعادة عزه وسلطانه .

من هذا الجانب الحساس ، يتقدم العراق المسلم من سورية المسلمة ، ومن هذا الجانب الشعوري تتقرب وفود جمعية «الاتحاد العربي» وهم مسيحيون كما عرفت ، من أبناء سورية المسلمة ، ومن هذا الجانب الديني المقدس يتودد دعاة البيت الهاشمي إلى رجالات سورية؛ ولكن إلى أي فئة من أبناء سورية يتقدم هؤلاء الدعاة وسورية كما عرفت منقسمة إلى قسمين ، جيل قديم يضع رجله في حفرة القبر وتتطلع عينه إلى متع الحياة الغرور ، وجيل جديد يؤمن بمستقبله ، ويعمل له ، ويكافح من أجله ، ويشيد بناءه لبنة لبنة ، وهو مجد في تكوين ذاته تكوينا « إيدولوجيا » يبعده من مخاطر الخوف والقلق واليأس ، ويدنيه من الاعتماد على النفس بالتربية السياسية وتقويم الأخلاق .

هنا ترى الدعاة المأجورين يتخطرون في مشيتهم ، ويبسمون بأنوفهم ، ويبشون بشاشة ناصلة اللون عندما يتقدمون من الشيوخ السوريين الواضعين أرجلهم في حفر القبور يحملون لهم الذهب الانجليزي . والجنيه الانجليزي ، والتمضيد الانجليزي ، ثم الأجر العظيم المرتقب عند الله في اليوم الآخر لكل عامل في خدمة الدين وعز الاسلام ، ومجد العرب !!!

وترى هؤلاء الدعاة أنفسهم ، ينكصون على أعقابهم بوجوه شاحبة كالحة كلما حاولوا الدنو من الشباب المتعلم ، الذي لا يخامره شك في أن هؤلاء الدعاة ، إن هم إلا خدام أجراء لأسياد غاصبين مستترين وراء ستار شفاف « هم الانجليز » الذين لا يريدون بهذا الشرق العربي خيراً إلا الخير الذي يعود على رب العزبة أو الاقطاعية .

هنا يصطدم الولد بالوالد في حدود التقاليد العربية وعادات الأسرة . هنا تقف الفتاة إلى جانب أخيها تشد عضده وتوازره وتسانده في رد أبيه إلى صراط الوطن ، وعز القومية ، وشرف الانسانية ، ودفع غائلة الأجنبي المستقوى .

هنا يقف الوالد من أولاده ، يضحك من اعتزازهم بالعلم واغترارهم به ، ويسخر من جدهم في أمر الوطن والقومية ، ويسخط على هذا الجيل الذي لم يتعلم ما تعلمه هو في ميدان الجهاد والمنافع.

ليست الفوارق بين جيلين ، ولا اصطدام عقليتين ، ولا اصطراع الأحزاب ، ولا انصراف التاجر والزارع والعامل إلى عمله الخاص ، ولا قرارات النواب ، ولا إلزام السلطة التنفيذية الأمة بقرارات النواب ، ولا وقوف الجيش يساند هذه الفئة من أبناء الأمة وينا صرها أو يخذل تلك الفئة ويتخلى عنها ، ليس كل هذه الأمور مجتمعة هي التي ستدنى أو ستحول دون وقوع « شجار أهلي » منتظر مرتقب ، إنما الذي سيدنيه أو يحول دونه أي دون « اضطراب داخلي » هي القوة العسكرية التي ستفرض سلطانها فرضاً تعسفياً على سورية والسوريين ، فتهد عرشاً قوامه الأمة ، وتقيم عرشاً ليس في وسع الأمة إنكاره أو التنكر له ، وأن هذه لا تكون حتماً عراقية ولا أردنية ولا سورية أيضاً بل تكون من المرتزقة من جميع هؤلاء ، وان موعد ظهور هذه القوة في ميدان العمل ، ليس رهناً بمشيئة الأمم العربية ، إنما هو رهن بالاتفاقات وتبادل المنافع ، وبالظروف السانحة ، وانتهاز الفرصة . وأزعم أن الانجليز لا يخطون بسرعة هذه الخطوة الحمقاء هل في وسع شباب سورية الحيلولة دون وقوع هذه النكبة ؟

مهيب الزعبلاوي